القرينة المقامية وتكوين المعاني بين حِدّة وفتور

عبد الجليل منصوري

المدرسة العليا للأساتذة -مستغانم-الجزائر،

البريد الإلكتروني: khalifam09@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/06/06 **تاريخ القبول: 2024/12/13** **تاريخ النشر:** 2024/12/30

الملخص:

الاتكاء على العبثية أثناء مقاربتنا لنص عربي فصيح_ أيًا كان مصدره_ هو ذاته ضرب من العبثية؛ إذ كل النصوص العربية من قرآن، أو حديث، أو تلك الصادرة عن متكلم مثالي لم تلفظه سنوات حياته بعيدا عن حيز الاحتجاج اللغوي هي نصوص ذات معانيَ سواءً أدركناها أم لم ندركها، وإنما يكون الإدراك عند المتلقي منوطًا بما يتوفر لديه من قرائن تُمكنه من كشف حُجب النص المقروء.

وقرينة المقام واحدة من أهم هذه القرائن_ ونحن هنا لا نذيع سرًا_ إذ لا يُمكن تجريد الكلام من مقامه، ولو فعلنا ذلك لعدنا إلى العبثية المذكورة في مستهل هذه الورقة، ولمّا حازت القرينة المقامية موضع الصدر في عملية القراءة بدا لنا أن نخصها بهذا البحث، والذي تتجلى أهميته فيما ذكرنا، إذ لا يُمكن فهم الكلام بعيدا عن مقامه أو محيطه الذي نشأ فيه.

المنهج المعتمد في هذه الدراسة مزيج بين الوصفي الذي يقف على الظاهرة محددًا أركانها، وبين الاستقرائي الذي ينظر إلى هذه الظاهرة في خضم النصوص جامعًا لآثارها عليها.

الكلمات المفتاحية: القرينة، المقام، تكوين المعاني، حِدّة، فتور.

المؤلف المرسل باللغة اللاتينية: Abdeldjalil Mansouri

Contextual presumption and the formation of meanings between acuity and lukewarmness

Abstract:
Relying on absurdity to approach an eloquent Arabic text – whatever its source – is in itself a form of absurdity. Indeed, all Arabic texts of the Quran, the Hadith or those emanating from an ideal speaker who has never uttered such words, outside the framework of linguistic protest, are texts that have meanings, whether we are aware of them or not, of the recipient having presumptions that allow him to reveal what is hidden in a text read. The contextual presumption is one of the most important presumptions because it is not possible to strip a discourse of its status. If we did that, we would return to the absurdity mentioned in this article. When the presumption of status took first place in the reading process, it seemed important to us to choose it for this research. This is all the more important because speech cannot be understood away from its context or the environment in which it comes.
The approach adopted in this study is a mixture between the descriptive, which examines the phenomenon and defines its elements, and the inductive, which looks at this phenomenon in the middle of the texts, gathering its effects on it.

Keywords: Presumption, context, meaning formation, acuity, lukewarmness.

La présomption contextuelle et la formation des significations entre acuité et tiédeur

Résumé :
S’appuyer sur l’absurdité pour aborder un texte arabe éloquent – quelle que soit sa source – est en soi une forme d’absurdité. En effet, tous les textes arabes du Coran, du Hadith ou de ceux émanant d'un locuteur idéal qui n'a jamais prononcé de telles paroles, en dehors du cadre de la protestation linguistique, sont des textes qui ont des significations, que nous en soyons conscients ou non, du destinataire disposant de présomptions qui lui permettent de révéler ce qui est caché dans un texte lu.
La présomption contextuelle est l'une des présomptions les plus importantes car il n'est pas possible de dépouiller un discours de son statut. Si l'on faisait cela, on reviendrait à l'absurdité évoquée lors de ce présent article. Lorsque la présomption de statut a pris la première place dans le processus de lecture, il nous a semblé important de la choisir pour cette recherche. Ceci est d'autant plus important car la parole ne peut être comprise loin de son contexte ou de l'environnement dans laquelle elle est issue.
L'approche adoptée dans cette étude est un mélange entre la descriptive, qui examine le phénomène et définit ses éléments, et l'inductive, qui regarde ce phénomène au milieu des textes, en rassemblant ses effets sur lui.
Mots-clés : Présomption, contexte, formation de sens, acuité, tiédeur.

مقدمة

ثقة المبدعين النصوصَ بفهم القراء لها شيء ضارب في الغرابة؛ إذ لا يُعقل أن المنشئ_ قبل وأثناء عملية الخلق_ يتوخى ما يُمكن فهمه، ويتخطى ما يعسر إدراكه، لأن في حرّ القبس الذي يحمله وهو يعاني الإبداع شاغلًا عن أموره هو بلْهَ ما يتعلق بالقارئ الذي لا يكون له وجود إلا بعد وجود النص، كما أنّ إغفالهم للقراء شيء لا يمكن الإقرار به، فكل مبدع إذ يُنشئ كلامه إنما يقصد به مُتلقيًا واضح الملامح عنده وإنْ فاضت بينهما القرون ذوات العدد. ونحن_ معشرَ القرّاء_ بين أن نعتقد ثقتهم بنا وإغفالهم لنا، وأن نختار أحد هذين الوجهين لنسلكه أثناء القراءة هو في نظري أشد وأصعب من عملية الإبداع ذاتها. وقد اختلف النقاد قديما وحديثا في تصنيف القراء، إلا أني سأطّرح كل ما قالوا وأجعل القراء صنفين لا غير:

- صنف يقرأ للمتعة والترويح عن النفس، يرى أن النص يعبر عن مكنون اشترك فيه هو ومن أنشأه، فهو يقاسمه المعاناة، ومن قاسمك المعاناة فقد قاسمك الراحة، وهذا الصنف يقرأ ليقرأ.
- صنف يقرأ ليغوص في بحر النص باحثا عن دره أو بعره(وأنا أعتذر عن هذه الكلمة، وبعض النصوص فيها ما هو أقبح وأشنع) فكلّما كان بحر النص عميقا استمرت حياته، وتواترت القراءة له، جيلٌ يرثها عن جيل، وفي كل قراءة يُصوّب خطأ، أو تُقال عثرة، أو يُضاء جانب مظلم، أو يُكشف غموض، أو يولد نص جديد بالجملة، وكلّما كان بحر النص ضحضاحًا خاضته أول قراءة فأتت على آخره، أو ثانيها، أو ثالثها، وهذا الصنف يقرأ ليكتب.

وإنما ركزت على القراءة في بداية هذه الورقة لأن القارئ إذا كان رديئا أهلك النص وأفسده ولو زعم أنه يحييه ويصلحه، وأشد الرداءة عندي أن يجعل القارئ برزخا بين المقال والمقام، وأن يُجرد النص من محيطه يتغيّا بذلك الحياد النقدي، وهذا الفعل غاية الانحياز إلى الخطأ. فكلّ نص بديع إنما هو لمحة فكر من برق خيال صادق في سماء إثارة ليسقي بعد ذلك بالجمال أفئدة طالما تلعّب بأعناقها الصدى.

فالفكرة والخيال والإثارة كل أولئك لابد له من مقام ومن محيط ينشأ فيه، بل قد أذهب أبعد من ذلك وأقول إن القارئ يقرأ في مقام ومحيط خاص به؛ وإلا فما المبرر لكثرة القراءات والنص واحد؟ فإن قيل إن القراءة تتعدد باختلاف المنهج، فأقول إن المنهج ذاته مقام لمن أمعن النظر فيه.

1. المقال والمقام:

1.2. المقال: مَفْعَل من قال يقول قولا، وهو الكلام على الترتيب، أو هو كل لفظ قال به اللسان **(منظور، 2004)** وهذا أصل القول عند العرب، إلا أن له معانيَ أخرى تكلم بها الفصحاء قد تكون فروعًا عن هذا المعنى، وقد تكون أصولا مستقلة، ومن هذه المعاني:

أ. **الفعل:** قد يُوصف فعل ما بالقول، فالعرب تقول: قال كذا، أي فعل كذا، ومن ذلك الحديث الذي رواه ابن مسعود_ رضي الله عنه_ أن النبي_ صلى الله عليه وآله وسلم_ قال: "**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه**" (البخاري، 1422) فيكون معنى: (قال) هنا ذّبه عن نفسه بيده، أو هشه، أو طرده، وكل هذه أفعال دلّت عليها لفظة (قال).

وعلى هذا يجوز لنا توظيف (قال) مع أي فعل شرط أن يدل عليه السياق، كأن تقول: قال بالقلم كذا أي كتب، وقال برجليه كذا أي حركهما...

ب. **الصوت:** يصف العرب الصوت بالقول فيقولون: قال: طَقْ، أي كان منه صوت هذه صفته، ومنه قول الشاعر (أحمد، 2011):

..... وقوْلُ رُكْبتِها قضْ حينَ تَثْنِيهَا

ج. **الكذب:** تستعمل العرب القول في معنى الكذب، ومنه حديث جابر_ رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله_صلى الله عليه وآله وسلم: "**مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله أتحب أن**

أقتله؟ قال: نعم، قال: ائذن لي فلأقل، قال: قُلْ، فأتاه.....وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة، وقد عنّانا..." (مسلم، د ت)

وليس المقصود بالقول هنا التورية، فهي لا تحتاج إلى استئذان لأنها ذات معنيين: بعيدٍ صادق وقريبٍ كاذب، أو موهمٍ على الأقل، وقد ورَّى النبي_ صلى الله عليه وآله وسلم_ لمّا سأله الضَّمْرِيُّ ممّن أنتم؟ يوم بدر، فقال: نحن من ماء (الواقدي، 1989) قاصدا أن أصل خلقهم من ماء.

وأمّا استئذان محمد بن مسلمة_ رضي الله عنه_ فإنما هو لتغيير الحقيقة، ومنه استفدنا معنى القول في الحديث.

د. **نسبة القول إلى غير العاقل:** تنسب العرب القول إلى غير متكلم من الجمادات والحيوانات، ومن ذلك ما أنشده ثعلب (ثعلب، 2019) عن نسبة القول إلى الجماد:

اِمتلأَ الحوضُ وقالَ قَطْنِي

سلا رويدًا قد ملأْتُ بطْنِي

فكأن الحوض لما امتلأ قال: حسبي من الماء وكفاني فقد ملأت بطني.

ويُنسب القول كذلك إلى الجزء من الإنسان، أو إلى العضو، قال الشاعر (سيده، 1421):

وقالتْ لهُ العينانِ سمعًا وطاعةً وحدَّرَتَا كالدُّرِّ لمَّا يُثَقَّبِ

كما يُنسب القول إلى الحيوان، ومن ذلك قول أبي النجم العجلي (العجلي، 1427):

قالتْ لهُ الطَّيرُ تقدَّمْ راشِدَا

إنَّكَ لا ترجعُ إلَّا حامِدَا

فجعل الطير تقول لممدوحه: تقدم فإنك سترجع حامدا ربك لنصره إياك، وسترجع محمودا غير مذموم.

هـ. **الاعتقاد:** ذكر ابن جني (جني، 1428)أن القول يوضع للاعتقادات والآراء، وذلك نحو قولك فلان يقول بقول أبي حنيفة، ويذهب إلى قول مالك، والمقصود أنه يعتقد اعتقادهما، ويرى رأيهما لا أنه يقول ما قالا بلفظه.

فالقول واسع المعنى، قد يُعبَّر به عن الكلام، أو الفعل، أو الصوت، أو الكذب، أو عن الحال، أو الإشارة، أو المجاز، أو عن مكنون يراه الرجل، أو يعتقده، وقد يُنسب إلى متكلم أو إلى غير متكلم.

2.2.المقام: مَفْعَل من قام يقوم قياما وقوما، وهو نقيض الجلوس (منظور، 2004)

والمقصود به في هذا البحث هو تلك الأحوال التي تعتري الإنسان فتجعله يراوح بين إيجاب وسَلب، وقد تكون حسّيّة أو تصوّريّة، لتكون تلك الأحوال سببا في حدوث الظاهرة الإبداعية، وتكون هذه الأخيرة تتأرجح بين الرسوخ أو الزوال على قدر الحال أولا، ثم على قدر المنشئ ثانيا، ثم على قدر المتذوق ثالثا وأخيرا.

وإنما قدمت الحال (المقام) أولا لأننا نجد أحيانا الشاعر المغمور يوضع في حال لم يعرفها الشاعر المشهور، فيأتي الأول بنص يسير في الأمصار مسير الليل والنهار، وقد لا يُعرف له غير ذلك النص.

والأحوال التي أقصد هي: الحب والبغض، الرغبة والرهبة، الطمع واليأس، الرضا والغضب، وغيرها مما يلابس الإنسان في سواد حياته وبياضها.

2. القرينة المقامية بين الانضباط والتفلت:

إن الفهم الجيد لنص من النصوص يشبه تماما البناءَ الجيد له، بل إن الفهم خادم للنص، به يسمو ويرقى، أو به يُطَّرح ويُلقى، والقراءة الجيدة محتاجة إلى إلمام بقرائن النص الداخلية والخارجية، وهي قرائن تتهادى بين الثابت والمتحول، كالقرينة اللفظية مثلا هي ثابتة ما دامت بعيدة عن التراكيب والسياقات التي من شأنها أن تُغير معناها، فلفظ الأسد دَالٌ على الحيوان المفترس، وثبات هذا اللفظ لا يخالف فيه أحد.

أما القرائن الخارجية فهي التي يصعب ضبطها كونها لا تتعلق باللفظ من حيث هو لفظ أو مادة لغوية مجردة، بل من حيث ما يدل عليه؛ إذ هي تؤثر على دلالاته، فإن قيل كيف يؤثر المقام في معنى اللفظ وهو إمّا توقيفي أو اصطلاحي (الشنقيطي، د ت) على الخلاف المشهور؟ وعلى المذهبين فإن المعنى قد التصق باللفظ، فكيف للمقام أن يُغيره؟

فأقول إن اللفظ قد اكتسب معنى عاما من التوقيف أو الاصطلاح، ثم صقلته مقامات توظيفه بين جِدّة وفُتور، فأخذ معنى مُستعلِيًا ومعنى مُستفِلًا ومعانيَ بينهما، ومثال ذلك لفظ العين؛ فكأن معناها العام يدور حول الحياة، ومنها العين الباصرة وبها لذّة حياة صاحبها ومنها عين الماء والعين: الشمس (منظور، 2004) وبهما حياة الناس، والعين: الذي ينظر لقومه وبه حياتهم...

وأمّا القرينة المقامية من حيث انضباطها واضطرابها فرأيت أن أجعلها أقساما يكون سردها كالآتي:

أ. **المقامية المو افقة:**

هي التي يتفق فيها اللفظ والمقام ليُفضيا بعد ذلك إلى معنى لا لَبس فيه يفهمه كل قارئ دون عناء، وهذه المقامية عليها أغلب الكلام العربي، فمقام المدح يُلزم الشاعر بألفاظ المدح كقول جرير (جرير، 2018):

ألسْتُمْ خيرَ مَنْ ركبَ المطايا وأَنْدَى العالمينَ بطونَ راحِ

فلفظ الخير ولفظ الركوب ولفظ الندى من ألفاظ المدح، والمقام مقامه، وكذلك كل مدح شعرا كان أو نثرا.

ومقام الهجاء يستدعي ألفاظ الهجاء، ومنه قول الفرزدق (الفرزدق، 1427) يهجو جريرا:

يا ابْنَ المراغَةِ كيفَ تطلبُ دارِمًا وأبوكَ بينَ حمارَةٍ وحمارِ

فألفاظ المراغة، والحمارة، والحمار لا تحتاج أن يُقال معها إن الفرزدق يهجو.

ومن مقام الرثاء قول الخنساء (الخنساء، 1982):

عَيْنَيَّ جُودَا بدمعٍ غيرِ مَنْزُورِ وأَعْوِلَا إنَّ صخرًا خيرُ مقبورِ

وألفاظ هذا المقام: الدمع والإعوال والمقبور، وما كان على شاكلتها موافقا للحزن والأسى وفقد المحبوب والتفجع عليه.

ولمقام الغزل ألفاظه التي تقطر عذوبة، وتصيب من النفوس ما يُصيب الماء من ذي الغُلَّة الصادي، ومن ذلك قول المجنون (المجنون، د ت)

وأهواكِ يا ليلى هوًى لَوْ تَنَسَّمَتْ نُفوس الوَرى أدناهُ صِحْنَ مِنَ الكَرْبِ

ولا يخلو مقام الحماسة من ألفاظ الغلظة والشدة، وذكر ميادين القتال، وما يُصاحبها من غارات وسطوة وقهر وتغلُّب وظلم وغزو، وأُمثل لذلك بشعر امرأة، وذلك أن المرأة أبعد شيء عن الغلظة وعن جرّ الكتائب ومقارعة الأنداد، ولكنها سطوة المقام تسلب المرأة رقتها، وتجعل ألفاظها ألفاظا يخشى بعض الرجال سماعها بله ذكرها، تقول ليلى الأخيلية (الأخيلية، 1431):

لا تغْزُوَنَّ الدَّهرَ آلَ مُطَرِّفٍ لا ظالمًا أبدًا ولا مظلومَا

قومٌ رباطُ الخيلِ وسْطَ بيوتِهِمْ وأسنَّةٌ زُرْقٌ تُخالُ نجومَا

ولا تخرج المقامات الأخرى عمّا سبق ذكره، كالملاطفة، والعتاب، والفخر، والاعتذار، وغيرها.

ب. **المقامية المخالفة:**

هذه ضد سابقتها، وهي التي يكون فيها المقام مخالفا للفظ، فيتغير بذلك معنى اللفظ، وينتقل من النقيض إلى النقيض، ولا يُمكن فهم الكلام ولا إدراك مراميه إلا إذا عُرض مع مقامه، ولو جُرّد منه لفُهم خلاف المقصود ومثاله قول الشاعر (ربه، دت):

إذا رَأَتْني تُفَدِّيني وتجعلُهُ في النَّارِ يا لَيْتني المجعولُ في النَّارِ

فالبيت موهم أن الشاعر يدعو على نفسه، والأمر خلاف ذلك فهو يدعو لها، وذلك لأن الشاعر كان إذا لقي امرأة فَدَّتْه بنفسها وبكل غالٍ، وإذا رأت رجلا غيره دعت عليه بالنار، ولمّا خطباها رفضت الشاعر، وتزوجت من كانت تدعو عليه.

فالشاعر إذ يجعل نفسه في النار إنما هو يقصد خلاف ذلك، وما أدركنا هذا المقصود لولا أن النص بلغنا بمقامه كاملا.

ج. **المقامية الحقيقية:**

الأصل في المقام أن يكون حقيقة لا خيال فيه، وقد ذكرت سابقا أنه كاشف للفظ وشارح له، والشرح يحتاج إلى حقيقة ليُفهم، وهذه المقامية كالمقامية الموافقة عليها غالب الكلام، لأن مدار الألفاظ لا يكون إلا في فضاء الحقيقة حتى تصرفها إلى المجاز قرائنُ قد حددها البلاغيون من قديم.

وليس المقصود بالحقيقة هنا حقيقة البلاغة، فالمقامية الحقيقية أعمّ، ويُدرج تحتها الحقيقة والمجاز البلاغيان، فقولنا: قام زيد عند قيام زيد مقامية حقيقية، وقول الوأواء الدمشقي (الوأواء، 1414)

فأمطرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نرجسٍ وسَقَتْ   وَرْدًا وعضَّتْ على العُنَّاب بالبَرَدِ

وليس في هذا البيت حقيقة بلاغية، إلا أن مقاميته حقيقية؛ إذ كل مقام أدّى إليك اللفظ بمعناه فهو مقام حقيقي وإن خرج المعنى من حقيقة البلاغة إلى مجازها.

ومثل ذلك قول الحريري في المقامة الدِّمياطية: "فأسْرَيْنا إلى أنْ نَضَا اللَّيْلُ شَبَابَه، وسَلَتَ الصّبحُ خضابَه" (الحريري، د ت)والمجاز في قول الحريري آكد ممّا هو عليه في قول الوأواء، وذلك لأن الشاعر ربما رأى محبوبته تبكي وتعض على شفتيها، ثم عبر بالمجاز البلاغي، أما الحريري فإن الحال التي اعترته عند خلقه هذا النص تصوّرية لا حسّية، فالكلام عنده مجاز في ذاته، وأصل التأليف مجاز، فلا وجود لأبي زيد السروجي ولا للحارث بن همام، فالقرينة المقامية هنا حقيقية، وضابطها_ كما سبق_ أن يحافظ اللفظ على معناه وإنْ لم يبرح أرض المجاز البلاغي.

د. **المقامية الخيالية:**

سبق وأن أدرجنا تحت المقامية الحقيقية الحقيقة والمجاز البلاغيين، فما الذي بقي للمقامية الخيالية؟

المقامية الخيالية هي ما كان الكلام فيها ناشئا من خيال لم يلتبس بحقيقة، وهي قسمان:

د.1. الخيالية المطلقة: هي الكلام الذي قد جعل له صاحبه مقاما خياليا محضا لا يُفضي إلى معنى محدد، حتى إذا سُئل بعد ذلك عن معناه لاذ بركن الخيال، ومن ذلك أن بشار بن برد مات له حمار، فرآه في النوم فقال له: لماذا متَّ؟ ألم أكن أحسن إليك؟ فقال الحمار (برد، 1429):

سَيِّدي خُذ بِي أَتاناً   عِندَ بابِ الأَصبَهاني

تَيَّمَتني بِبَنانٍ   وَبِدَلٍّ قَد شَجاني

تَيَّمَتني يَومَ رُحنا   بِثَناياها الحِسانِ

وَبِغُنجٍ وَدَلالٍ   سَلَّ جِسمي وَبَراني

وَلَها خَدٌّ أَسيلٌ   مِثلُ خَدِّ <u>الشَيفَرانِي</u>

فَلِذا مِتُّ وَلَو عِش   تُ إِذاً طالَ هَواني

فالشعر رؤيا، وهذا مجاز، ثم هو على لسان حمار، وهذا مجاز في مجاز، وليس هذا هو الغرض من المقامية الخيالية، وإنما الغرض منها ما كان من بشار بن برد لما سأله أحد الحاضرين عن معنى: الشيفراني في البيت الخامس، فأجابه: هذا من غريب الحمار فإذا لقيته فاسأله.

وقد بحثت عن معنى هذه الكلمة في المعاجم فلم أعثر عليه، بل لم أعثر على الكلمة أصلا وهذا هو المقصود بالمقامية الخيالية؛ أي أن يُوظَّف كلام لا يُدرك له معنى على وجه خاص، بل تتضارب فيه أقوال المفسرين والشُراح دون القطع بمعنى، ولا يُجيز ذلك إلا خيالية المقام، ولو أن بشارا لم يُسند ظهره إلى الرؤيا ثم الحمار لما سمعنا هذا اللفظ في أدبنا العربي.

فالمقامية الخيالية تُجيز للمتكلم أن يتسع في الكلام، فيورد ألفاظا لم يُسبق إليها، وقياسا على ذلك قد يجوز له أن يورد معانيَ جديدة على ألفاظ قديمة، فإن سُئل عن أصلها قال إن المقام خيال لا حقيقة.

د.2. الخيالية المقيدة: هي التي نشأ كلامها في خيال ثم أفضى إلى حقيقة، فلا قيمة فيها لمعاني الألفاظ، وإنما تتهاوى تلك المعاني لتبقى الألفاظ مجردة حتى تُخلع عليها معانٍ أخرى لم تكن تلك الألفاظ لتتحملها لولا هذا المقام.

ومثال ذلك قوله تعالى: { وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}(يوسف:36) فلو كان اللفظ دالا على المعنى الذي وُضع له لما احتاج الرائي إلى من يُنبئه بتأويل رؤياه، فالألفاظ في هذا المقام تأخذ معاني غير معانيها، فلفظ الحمل لا يدل على الحمل، ولفظ الخبز لا يدل على الخبز، وإنما دلت العبارة كلها على الصلب والموت.

وقد جعلنا هذه المقامية الخيالية مُقيدة لأن الدلالات التي تكتسبها الألفاظ في الرؤى لا يُدركها إلا الأنبياء_ عليهم السلام_ ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل في هذا الباب، وجعلنا الأولى مطلقة لأنها جائزة لكل إنسان.

هـ. المقامية العامة:

هذه المقامية التي يشترك فيها الناس جميعا؛ إذ يعتري الإنسان ما يعتري غيره من فرح وحزن، وانبساط وانقباض، واكتراث وعدمه، وغيرها من الأحوال التي لا يسلم منها أحد في كل زمان ومكان.

فمقام الفرح مقام عام يشترك فيه الناس جميعا بدرجات مختلفة، ويعبرون عنه بألفاظ دالة عليه، وكذلك المقامات الأخرى، ومن مقام الغضب قول عمرو بن كلثوم (محمد، 2016):

أَلَا لا يجهَلَنْ أحدٌ علينَا فنجهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينَا

فقد أعاد لفظة الجهل متصرفا فيها في بيت واحد أربع مرات، وهكذا كل متكلم في هذا المقام.

ومن مقام اللهو قول أبي نواس (نواس، د ت):

ولَهُ يدورُ الكأسُ كلَّ عشيَّةٍ حالانِ موتٌ تارةً ونشورُ

حتى لفظ الموت الذي هو أبعد الألفاظ عن أفواه اللاهين لمّا وظفه أبو نواس في هذا المقام كان دالا على اللذة واللهو، إن لم يكن دالا على الغاية فيهما، فقد قصد بالموت السكرة التي لا يُحس معها بشيء، وهذا مقام عام يدخل فيه كل لاهٍ ومستهتر، وعلى هذين المقامين اللذين مثلنا لهما تُقاس المقامات الأخرى.

و.المقامية الخاصة:

إذا كان المقام أحوالا تعتري الناس، فالأصل فيه الاشتراك والعموم، إلا أن بعض البشر تعتريهم أحوال خاصة لا يُشاركهم فيها أحد، وقد تصدر عنهم في تلك الأحوال نصوص إذا بلغتنا مفسرة فهمناها، وإلا حالت خصوصية المقام بيننا وبين فهمها، وذلك لأن المعنى سليل اللفظ والمقام معا، إذا فُقد أحدهما فُقد المعنى، والطرف الذي يجوز فقده هو المقام؛ إذ لا يُعقل_ ولا يُمكن_ أن يُفقد اللفظ ثم نسعى بعد ذلك إلى إيجاد المعنى.

ومن المقامية الخاصة التي بلغتنا مفسرة كلام سليمان_ عليه السلام_ مع الهدهد في قوله تعالى: **{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } (النمل:22)** وما شاكلها من كلام الأنبياء_ عليهم السلام_ عربا كانوا أو عجما مع غير البشر.

وبالمقامية الخاصة يمكن أن نفسر ظاهرة الألفاظ المهملة في اللغة العربية، فالمعنى لفظ ومقام، فإذا كان المقام خاصا فإنه يزول بزوال صاحبه، ويبقى اللفظ بعد ذلك بلا مقام يُفسره ويكسبه معنى، فينتقل اللفظ من دائرة المستعمل المفهوم إلى دائرة المهمل الغامض، ومن المقامية الخاصة حياة آدم_ عليه السلام_ في الجنة، ولعله لما غادرها هابطا إلى الأرض غادرها وفي حقائبه اللغوية ألفاظ كثيرة طُلِّقَت عن مقاماتها، فحِيل بيننا وبين معانيها، ثم وسمناها بوسم الإهمال، فهي عندنا مهملة، وهي عند أول متكلم بها مستعملة واضحة المعنى لا ريب في ذلك.

ويبقى إشكال حول لغة آدم_ عليه السلام_ في الجنة هل كانت العربية؟ أم هي لغة أخرى؟

والجواب على هذا الإشكال حديث في المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ أن رسول الله_ صلى الله عليه وآله وسلم_ قال: "**أحبُّوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**." (الطبراني، 1415) وكلام أهلها هنا مطلقا، ومعناه أن كل من سكنها تكلم العربية فيها، فإن كانت الأمم السابقة، والعجم المسلمون من هذه الأمة

سيتكلمون فيها العربية ولسانهم غير عربي، فكيف بآدم_ عليه السلام_ وأول كلامه كان فيها وهو أصل العرب وغيرهم. فالألفاظ المهملة إذن كـ (ديز)، و (يزد)، وما شاكلها هي ألفاظ كانت مستعملة في مقامات خاصة، ثم زالت تلك المقامات، فصارت الألفاظ مهملة والله أعلم.

ز. **المقامية الآنيّة:**

هي المقام المتعلق بزمن ما، ويتفرع عنها نوعان:

ز.1. **الآنية المتفردة:** وهي ما يعتري الإنسان في زمن معلوم، إلا أن هذه الحال تنقطع بعد ذلك، وقد ينشأ لنا كلام في هذا المقام يفهمه من أنشأه، ويفهمه من قاسمه اللحظة، إلا أن كلامه هذا لا يُفهم بمرور الزمن، ولعل هذا أهم مبرر لغموض المعاني في الشعر العربي، إذ نجد كثيرا من شُراح الدواوين يقفون عند بعض المعاني عاجزين عن الإبانة عن غرض الشاعر فيها مع أن الألفاظ واضحة، ومعانيها أوضح، إلا أن التركيب الذي فرضه المقام غير واضح، ومن ذلك قول ابن المعتز (المعتز، 1431) يصف الخمر:

كأنَّ خراطيمَهَا في الزُّجاج خراطيمُ فحلٍ يُنقِّينَ ثَوْرَا

فالخراطيم الأولى جمع خرطوم، وهي الخمر السريعة الإسكار (منظور، 2004)، والخراطيم الثانية جمع خرطوم وهو الأنف (منظور، 2004)، أمّا قوله: يُنقين ثورا فلا يمكن الوقوف بها على معنى سليم، فإذا سلّمنا بصحة رواية البيت، وسلامته من التصحيف والتحريف، لم يبق إلا المقامية الآنية، فلا يُعقل أنّ رجلا كابن المعتز في فصاحته وبلاغته وسلامة طبعه أن يقول كلاما لا معنى له، فالمقام الذي من شأنه أن يُفسر لنا كلام ابن المعتز كان آنيّا تفرد به الشاعر ثم انقطع دابره.

ز.2. الآنيّة المتكررة: هي ما تعلق فيه المقام بزمن كذلك، إلا أن هذا المقام لا يزال يتكرر باستمرار الزمن، وهذه المقامية عليها أغلب الكلام ومنها قول العرب: "جاؤوا على بكرة أبيهم" (الميداني، 2010)فلو قيل هذا المثل في أيامنا لمن جاؤوا جميعا لفُهم، وإن لم تكن هناك بكرة.

ح. **المقامية المتراخية:**

وهذا المقام من أعجب مقامات الكلام، وهو دليل على ذكاء العربية، وتوقد ذهنها، ويقظة قلبها، ولعله لا يوجد في لغة سواها، وفيه يُبنى الكلام على مقامين: جديد وقديم، ولا يُفهم المقام الجديد إلا إذا اتصل بالمقام القديم، فكأن المقام يتراخى ويمتدّ، ومن ذلك قصة عجيبة حدثت لأبي العلاء المعري مع أبي نصر المنازي، وقد دخل عليه هذا الأخير مع جماعة من أدباء الشام في داره بمعرة النعمان ليحكم في شعرهم، فأنشدوه وأنشده أبو نصر أبياتا يقول في مطلعها:

وقانَا لفحةَ الرَّمْضاءِ وادٍ سقاهُ مُضاعفُ الغيثِ العميمِ

فقال أبو العلاء له: أنت أشعر من بالشام.

ثم ارتحل أبو العلاء إلى بغداد في شأن من شؤونه، ودخل عليه أدباؤها وفيهم أبو نصر، وهو لا يراه، وأنشدوه ليحكم بينهم، ثم أنشده أبو نصر أبياتا يقول في مطلعها:

لقدْ عَرضَ الحمامُ لنَا بسجعٍ إذَا أصْغَى لهُ ركبٌ تلاحَى

فقال أبو العلاء: ومَنْ بالعراق (الحموي، د ت).

فأبو نصر قد فهمه لتراخي المقام عنده، أمّا البغداديون فأنا على ثقة أنهم بين من حسبه يسأل عن من بالعراق؟ وبين من لم يفهم قوله حتى أعادهم إلى مقام الكلام بالشام، فقبّلوا ما بين عينيه لفرط بلاغته.

ط. **المقامية القُطْرية (المكانية):**

هذا آخر الأقسام التي جعلتها للقرينة المقامية، وفيها يتعلق المقام بقُطْر من الأقطار لا يُجاوزه، ولا يُفهم معنى الكلام إلا فيه، ولا يُفسره لك إلا أهله، وأمثل لهذا القسم ببيت لشاعر حديث؛ وذلك لأن العرب لم تعرف الأقطار قديما كما عرفناها حديثا، هم عاشوا في أقطار مختلفة نعم، ولكن عاداتهم قريبة، وأحوالهم واحدة، ولسانهم واحد عدا بعض الخلاف الذي

لا يضر، والشاهد على هذا أن القرآن نزل جزء منه في مكة على عرب عدنانية، ثم نزل جزء منه بالمدينة على عرب قحطانية، وكلٌ منهم فهمه دون الحاجة إلى تُرجمان.

ومثال المقامية القطرية قول الشاعر الموريتاني محمد ولد أحمد يوره:

أطعْتُ العواذِلَ خوْفَ الجَفَا وخوفَ الحشيشَةِ أنْ تُنْتَفَا

فلو أخذتَ هذا البيت، ثم طوَّفت به ما طوّفت من بلاد العرب طولا وعرضا، ثم عدت به إلى الزمن الغابر حتى تأتيَ امرأ القيس الكندي، ما وجدت له مجيزاً ولا مُعبّرا على سهولة ألفاظه وقربها.

ولكنك لو يمّمت به أرض موريتانيا، لشرحه لك أدنى أهلها_ وليس فيهم أدنى_ حيث معناه أن الشاعر أطاع حسّاده مخافة أن يُجفى من محبوبه، ومخافة أن تُنتف الحشيشة، وهذه الأخيرة من عادات أهل موريتانيا، وهي أن يجعل الأصهار بين خيمتهم وخيمة صهرهم حشيشا فيه دلالة على الوقار والهيبة، فإذا نُتفت هذه الحشيشة التي هي ساتر بين الخيمتين سقطت الهيبة، وذهب الوقار، وربما كان ذلك سببا في الانفصال بين الزوجين.

وبهذه المقامية أكون قد وفّيت هذه القرينة حقها، وإن بدا أنّ هناك مقاميات أخرى، فإنما هي تُدرج تحت الأقسام التي ذكرت، والأنواع التي إليها أشرت.

3. القرينة المقامية في القرآن الكريم:

القرآن وحي الله_عز وجل_ إلى نبيه الكريم_صلى الله عليه وآله وسلم_ ونحن قبل أن نُشير إلى هذه القرينة في كتاب الله_عز وجل_ نُنزه الرّبّ_ تبارك وتعالى_ من الأحوال التي تعتري خلقه؛ إذْ ليس المقصود بالمقام هنا ما عرّجنا عليه سابقا بتفصيله، إلا أنّ الله_ عز وجل_ كلمنا بما نفهم، والعرب تُدرك أنه لا كلام بلا مقام، وقد اجتهد العلماء قديما في هذا الباب، وصنفوا كتبا في أسباب النزول، ولست أقصد بالمقامية في القرآن الكريم تلك الأسباب، وإنما أريد أن أقف على بعض المعاني لبعض الألفاظ القرآنية أو التراكيب مستندا إلى ما يكون من المقام المصاحب لها.

أ. **{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ}(البقرة:228)**

أشكلت لفظة القروء على المفسرين والشُراح، واختلفوا في معناها بين طهر وحيض، فقال عمر وعلي ومعاذ وأبو الدرداء وأبو موسى_ رضي الله عنهم_ ثلاث حِيَض، وقالت عائشة وزيد بن ثابت وابن عمر_ رضي الله عنهم_ : ثلاثة أطهار (النحاس، 1409)وقد ذكر النحاس هذا الخلاف، ورجح أن يكون معنى القُرء: الحيض، مُحتجا أن العرب هكذا كلامها (النحاس، إعراب القرآن، 1428)،وليس الأمر كذلك، فالعرب تجعل القُرء من الأضداد، فهو الطُهر عندهم وهو الحيض (منظور، 2004)كما زعم ابن منظور. وحجتهم في ذلك حديث: "دعي الصلاة أيام أقرائك"، ولم يرد بهذا اللفظ في مدونات الحديث إلا في سنن الدارمي (الدارمي، 1412) وفي مسند الإمام أحمد برواية: "اجتنبي الصلاة أيام محيضك ثم قال: وقد قال وكيع: اجلسي أيام أقرائك ثم اغتسلي" (الإمام أحمد، 1421)، فالقول لوكيع بن الجرّاح، وقد ولد سنة تسع وعشرين ومائة بالعراق (الذهبي، 1405) ، فلا زمنه زمن احتجاج ولا مكانه. ثم حجتهم بيت الأعشى (الأعشى، 2008):

مُورِّثَةً مالًا وفي الحمدِ رِفعةً لما ضاعَ فيها مِنْ قروءِ نِسائِكَا

زاعمين أن الذي يضيع ويفوت هو الطُّهر، وهذا خطأ فاحش؛ لأنه زعْم الساعي إلى قضاء وطر، وإنما الذي يضيع الحيض لما فيه من براءة الرَّحم، واستعداد المرأة للحمل، أمّا الطهر فقد لا يكون دالا على ضياع لأنه قد يُصاحب الحمل، ولا يدّعي الضياع مع الحمل إلا غافل. وإنما اجتنب الأعشى ذكر المحيض وكان جائزا له معنى ووزنا، لأنه كان يمدح هوذة بن علي الحنفي، وكان ملكا على اليمامة، ويدل على ذلك قول الأعشى يمدحه في قصيدة أخرى (الأعشى، 2008):

مَنْ يلْقَ هَوْذَةَ يسجدْ غيرَ مُتَّئِبٍ إذا تعصَّبَ فوقَ التاجِ أو وَضَعَا

والعرب تجتنب ذكر بعض الألفاظ في حضرة الملوك، ومنها المحيض. ثم حجتهم بيت من مشطور الرجز أنشده ابن قتيبة في المعاني الكبير، يقول فيه صاحبه (قتيبة، 1405):

لَهُ قروءٌ كَقروءِ الحائِضِ

وهذا أبعد من بيت الأعشى، إذ لا يجوز: له حِيَض كحِيَض الحائض، ولو جاز ذلك لجاز لنا أن نقول:

لَهُ بكاءٌ كبكاءِ الباكي

وإنما المعنى في البيت الذي أنشده ابن قتيبة: له أوقات حدة وفوران كأوقات الحائض.

فلم تبق إلا الآية، والمقام فيها مقام طلاق لقوله_عز وجل_ (والمطلقات) ويقابل الطلاق النكاح، ولمّا كان النكاح مع الطهر، فهمنا أن القرء معناه الحيض لمقام الطلاق، والله أعلم.

ب. **{وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الأنفال:32)**

ذكر الزمخشري (الزمخشري، دت)في تفسير هذه الآية قصة عن رجل من سبإ يُجهّل قوم النبي_ صلى الله عليه وآله وسلم_ إذ كان عليهم أن يقولوا بزعمه: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له.

وقد أخطأ السبئي في فهم الآية لمّا جردها عن مقامها، لأن المقام مقام استهزاء وجدال من الكفار، ويدلك على ذلك الآية قبلها: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ} (الأنفال:31)، أو مقام دعاء على النبي_ صلى الله عليه وآله وسلم_ بالعذاب لا على أنفسهم، ويدلك على ذلك الآية بعدها: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}(الأنفال:33)،ولو أن السبئي أمعن النظر في دعاء قريش على نفسها ظاهرا، وما صاحبه من مقام الاستهزاء أو مقام الداعي على المجادل، لأدرك أنهم غير جُهال، وكيف يكون جاهلا من يُصرّف الكلام في الجدال كيف يشاء ليفحم خصمه، ولقد قال الله_ عز وجل_ عنهم: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} (الزخرف:58)،أي هم شديدون في الخصومة والجدل كما قال ابن سيده (سيده، 1421)

ج. **{ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} (الدخان:49)**

في الآية لفظان دالان على خلاف معنييهما، فالعزة والكرامة دالان على الذلة والمهانة؛ لأن المقامية مخالفة، ودلّ على ذلك مقام الذائق؛ إذ هو في الجحيم لا في النعيم، فالآية قبلها: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} (الدخان:48)، وقد أشرت إلى هذه المقامية عند ذكر أقسامها، حيث يُخالف اللفظ المقام، فيدل على غير ما يدل عليه في الأصل، لا لكونه من معانيه، بل لأن المقام أجاز ذلك.

ومثل هذا قول قوم شعيب_ عليه السلام_ لنبيهم: {إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ}(هود:87)، والمقام مقام جدال وتكذيب، فمعنى اللفظين هنا إنك لأنت السفيه الغوي_ وحاشاه عليه السلام_ والعلم عند الله تعالى.

4. القرينة المقامية في الحديث النبوي:

سأعرض هنا بعض الألفاظ التي أُقصيت عنها معانيها، وجاورتها معان أخرى، لولا المقام ما كانت لتجاورها أبدا.

أ. **اللَّبَن:** معروف عند الخاصة والعامة، إلا أن من معانيه: العلم، ولا يكون ذلك إلا في الرؤيا، عن عبد الله بن عمر_رضي الله عنهما_ قال رسول الله_صلى الله عليه وآله وسلم_ : "بينا أنا نائم أوتيتُ بقدح لبن فشربتُ منه..." الحديث (البخاري، 1422) ثم أوله بالعلم.

ب. **القَمِيص:** وهو الثوب المعروف الذي يلبسه الرجل، إلا أنه قد يدل على الدِّين، وهي دلالة خاصة بالرؤيا كذلك (البخاري، 1422)

ج. **القَيْد:** وهو ما يُشد به وثاق الرجل في الأسر من يديه أو رجليه، وهذا شيء قبيح غير مرغوب، ولكن إذا كان في رؤيا فهو دال على شيء محبوب، وهو الثبات في الدين (البخاري، 1422).

ولولا المقام لما اجتمعت هذه الألفاظ مع هذه المعاني في صعيد واحد.

5. القرينة المقامية في الشعر العربي:

لقد اعتمدت في هذا البحث أساسا على الشعر العربي أثناء تصنيفي للقرينة المقامية وجعلها أقساما، ولا أريد أن أعود إلى ما كنت فيه هنا، فقد وظفت تسعة عشر بيتا من الشعر العربي، يمكن الرجوع إليها في فصل انضباط المقام وتفلته، والرجوع إلى أضرابها في دواوين الشعراء قديما وحديثا.

ولما كان منّا نفي العبثية في مستهل هذا البحث عن كلام العرب، إذ كنت_وما زلت_ معتقدا أن العرب لا يختارون الألفاظ في كلامهم جزافا، وأنهم إذ يختارون اللفظ ويجعلونه في موضعه، ما كان غيره ليحل في ذلك المكان، ولو حلّ لقصّر عن المعنى الدائر في النفس، حتى وهم يضطرون في أشعارهم، أو في تدوير الكلام وتسوية أطرافه في خطبهم وأمثالهم، فهم يضطرون إلى أليق الألفاظ وأنسبها، ويبقى هذا الاعتقاد ماثلا عندي كلما ذُكر فصحاء العرب وبلغاؤها، وإذا ابتعدت عن عصور الفصاحة قادما إلى زماننا اهتز ذلك الاعتقاد، لا لقصر اللسان العربي، بل لتقصير المستعملين عن الغاية واختلاط ألسنتهم.

وسأمثل لمقامية الكلام عند ثلاثة من الشعراء، قد أطبق النقاد على فحولتهم، في ثلاث من القصائد المعلقات التي هي أفحل الشعر وألصقه بذاكرة الرواة، وسأثبت فيها تأثير المقام على انتقاء الألفاظ في الأبيات المطالع، وهي التي يُسميها البلاغيون براعة الاستهلال أو براعة الابتداء، وليس القصد من ذلك تعميم الظاهرة_ والأمر جائز إلا أنه يطلب جهدا ومساحة أوسع_ وإنما القصد الإشارة إلى مدى وثاقة الرباط بين المقام والمقال، ولو كان ذلك في بيت واحد.

واخترت الأبيات المطالع لشدة اعتناء الشعراء بها، وحرصهم على تفردها؛ لأنها أول ما ينهل من القريحة والجذوة في أوْج توقدها من جهة، ولأنها_ من جهة أخرى_ أول ما يُنفث في أذن المتلقي، ثم إقبال بعد ذلك عليها وعلى ما بعدها أو إدبار.

أ. **معلقة امرئ القيس:** بدأ امرؤ القيس معلقته: بالوقوف والبكاء، أمّا الموقوف فليس له فيه مزية تُذكر، لأنه أمر فطري يصيب كل إنسان عربي وغير عربي، شاعر وغير شاعر، كلما مرّ بدار سكنها، أو سكنها من يُحب.

أما البكاء فهو ما استوقفني؛ إذ لم تبدأ معلقة بالبكاء سوى هذه، ولم يبدأ امرؤ القيس بالبكاء قصيدة في ديوانه ومجموعها تسع وتسعون قصيدة بين طوال وقصار، وقصيد ورجز إلا هذه، وأخرى يقول فيها (القيس، د ت):

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفانِ .....

ومن تتبع الأسباب، يجد أن امرأ القيس يذكر همًّا شديدا أصابه في المعلقة، ويجده يذكر ثأرًا يطلبه في القصيدة الثانية، فلعل البكاء كان على محبوب قُتل، وهو أبوه، فأصابه الهم لذلك حتى طال ليله وثقل عليه، فقال (القيس، د ت):

ولَيلٍ كموجِ البحرِ أرخَى سدولَهُ عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلِي

وما كان ليل الأمير ليطول_ وكل الليل الأميري كذلك_ لولا مقتل أبيه الذي سيورثه ذلا راسخا إذا لم يأخذ بثأره.

ويدل طول الليل عند امرئ القيس على الحزن لفقد أبيه، ومن ذلك أبيات من مشطور الرجز قالها عند بلوغ خبر أبيه (القيس، د ت):

تطاوَلَ اللَّيلُ علينَا دَمُّونْ

دَمُّونُ إنَّا معشرٌ يمانُونْ

وإنَّنا لأهلِنَا محبُّونْ

أما في القصيدة الثانية التي استهلها بالبكاء كذلك، فإنه يذكر الثأر، وجرّ الجيش إلى العدو، فيقول (القيس، د ت):

ومَجْرٍ كغُلَّانِ الأُنَيْعِمِ بالغٍ ديارَ العدوِّ ذِي زُهاءٍ وأركانِ

والمجر الجيش الكثيف (منظور، 2004) يقصد به ديار عدوه، ومن أعدى عنده ممّن قتل أباه الملك.

فلمّا كان المقام مقام حزن وبكاء غلب على الشاعر جعل البكاء على الدار راحة لنفسه، كما جعله فرارا من البكاء الصريح على أبيه، لأن أباه نهى أبناءه عن البكاء عليه والجزع (الزوزني، 1423)، وإلا فما المُبرر لخلو ديوان امرئ القيس من قصيدة يرثي بها أباه، وقد رثى الشعراء من هو دون أبيه، وهم دون امرئ القيس قولا واحدا.

ب. **معلقة عمرو بن كلثوم:**

لم يبتدئ شاعر معلقته بمثل ما ابتدأ عمرو (كلثوم، 1411)؛ إذ لم يقف على الديار ولم يذكر الراحلين، وإنما بدأ بذكر الخمر وطلب الصَّبُوح، والمقام مقام فخر وتَعداد مآثر، ورأس ما فخر به قتله الملك عمرو بن هند، فلمّا رأى أنه فعل ما لم يفعل غيره أباح لنفسه أن يقول ما لم يقل غيره، ولم يصنع ذلك إلا في المعلقة، وله في ديوانه ست وثلاثون قصيدة بين طوال وقصار لم يبدأ في واحدة منها بالخمر عدا المعلقة.

وربما قال قائل: كان يجوز له أن يبدأ بأي شيء غير الأطلال ليكون مخالفا لغيره، فلماذا بدأ بالخمر؟ وما مناسبتها للمقام؟
لقد بدأ بالخمر لأن العرب تفخر بشربها وإنفاق المال فيها، والمقام مقام فخر كما أسلفنا.
والمقام كذلك مقام فتك وقتل، وهو محتاج إلى الشجاعة وعدم التردد، والعرب تشرب الخمر لتُقبل على الموت دون حساب للعواقب، كما قال حسان بن ثابت_ رضي الله عنه_ (حسان، 1414)
ونشربُهَا فتتركُنَا ملوكًا وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُهَا اللقاءُ
كما أن عمرا هو الوحيد بين أصحاب المعلقات الذي بدأ بحرف التنبيه منبها على نفسه وقومه، وأَمَر ونَهَى، وكل هذا مناسب لمقام الفخر. والعادة فيمن يذكرون الخمر أن يتخيروا الألفاظ اللطيفة ترفقا بندمائهم، إلا أن عمرا اختار الفعل (هُيِّي) لما فيه من دلالة على الثورة والهيجان (منظور، 2004).

ج. **معلقة الحارث بن حلزة:**

مقام هذه القصيدة (حلزة، 1996)مقام فخر كذلك، وقد أُلقيت في حضرة ملك، ولو لم تنقل الرواة أنها أُلقيت في حضرة ملك لعلمنا ذلك من أول لفظ فيها، وذلك قوله: آذنتنا، وهذا من الألفاظ التي تكون في حضرة الملوك، ولا أعرف شاعرا بدأ قصيدته بالإيذان إلا الحارث، وهو نفسه لم يبدأ قصيدة أخرى بالإيذان، وعدد قصائده المثبتة في ديوانه ثلاث وخمسون.
وقد أملى المقام على الحارث اختيار اللفظة المناسبة لما لها من دلالات عميقة، ما كان غيرها ليدل عليها.
فجعل المرأة تؤذنه بالفراق، والأصل في المرأة ألّا تفعل، ثم جعلها تؤذنه ولا تخبره، ثم عظّم نفسه بضمير الجماعة كما تفعل الملوك، وهذا كله من مقام الفخر، ولولا ذلك لتذلل للمرأة كما يتذلل كل عاشق.

6. خاتمة:

وبعدُ، فقد أوجزت في هذا البحث_ مُكرها لا بطلا_ لأن استقصاء الكلام في ما وقفت عليه من أقسام القرينة المقامية، ثم تفصيلُ القول بالتمثيل لكل قسم تمثيلا يسد الثغرة، ويبلّ الصّدى، ويُخرج من حرج الواجب إلى سعة المندوب، كل ذلك مُحوِج إلى استرسال قد يُزحزحُ البحث عن الغاية المنشودة.
إلا أن ظني بهذا الإيجاز ظن يبعث في نفسي شعورا يخبرني أن المادة التي قدمت ستكون فاعلة في إزالة شيء من الغشاوة عن بعض المعاني، أو عن أعيننا نحن لنرى تلك المعاني على حقيقتها كما رآها العرب الأوائل.
أو لعل المادة التي قدمت تكون باعثة لمثاقفات هنا وهناك، من شأنها إثراء الموضوع، ورفع قواعده حتى يصير عملا كامل الأركان، خادما لهذا اللسان العربي.
ولا يفوتني أخيرا أن أشير إلى بعض النتائج والتوصيات التي أفضى البحث إليها:

- أولا: إن بين المقال والمقام رباطا وثيقا لا يمكن حلّه أو العبث به أبدا.
- ثانيا: لا يمكن للفظ أن يدل على معنى بعيدا عن المقام، بل إن المقام يُكسب اللفظ معنى أو معانيَ لم يكن ليكسبها لولا المقام.
- ثالثا: يمكن تبرير ظاهرة المهمل اللغوي في معاجمنا العربية من خلال القرينة المقامية.
- رابعا: يمكن الوقوف على غموض المعاني التي ورثناها في المدونات العربية إذا نحن استحضرنا المقام بجميع أركانه.
- خامسا: إن للمقام تأثيرا واسعا على المتكلم، حتى إنه ليفرض عليه انتقاء ألفاظه وعباراته.
- سادسا: الدراسة المؤصلة لقرائن الكلام الخارجية عامة_ وللقرينة المقامية خاصة_ تفتح أمامنا آفاقا لغوية وأدبية، قد تكون لها اليد الطولى في فهم تراثنا العربي فهما لائقا.

المصادروالمراجع:

القرآن الكريم

أحمد بن حنبل، مسند أحمد، 1421هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الأعشى ميمون بن قيس، الديوان، 2008م، دار صادر، بيروت.

امرؤ القيس الكندي، الديوان، د ت، دار المعرف، القاهرة.

البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، 1422هـ، دار طوق النجاة، بيروت.

بشار بن برد، الديوان، 1429هـ، دار السلام ودار سحنون، القاهرة وتونس.

ثعلب أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، 2019م، دار المعارف، القاهرة.

جرير، الديوان، 2018م، دار المعارف، القاهرة.

أبو جعفر النحاس، إعراب القرآن، 1428هـ، دار الحديث، القاهرة.

أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، 1409هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

ابن جني عثمان، الخصائص، 1428هـ، دار الحديث، القاهرة.

الحارث بن حلزة، الديوان، 1996م، دار صادر، بيروت.

ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، د ت، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة.

الحريري القاسم بن علي، مقامات الحريري، د ت، دار الفكر، بيروت.

حسان بن ثابت، الديوان، 1414هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

الخنساء تماضر بنت عمر، الديوان، 1982م، دار المسيرة، بيروت.

الدارمي عبد الله بن عبد الحمن، سنن الدارمي، 1412هـ، دار المغني، المملكة العربية السعودية.

الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، 1405هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الزمخشري محمود بن عمر، الكشاف، د ت، الدار العالمية، القاهرة.

الزوزني حسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، 1423هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن سيده علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، 1421هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشنقيطي محمد الأمين، مذكرة في أصول الفقه، د ت، دار الحديث، القاهرة.

الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، 1415هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

العباسي عبد الرحيم بن أحمد، معاهد التنصيص، 2011م، عالم الكتب، بيروت.

عبد الله بن المعتز، الديوان، 1431هـ، دار صادر، بيروت.

ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، د ت، دار الكتاب العربي، بيروت.

عمرو بن كلثوم، الديوان، 1411هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

الفرزدق، الديوان، 1427هـ، دار صادر، بيروت.

ابن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير، 1405هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

ليلى الأخيلية، الديوان، 1431هـ، دار صادر، بيروت.

مجنون ليلى قيس بن الملوح، الديوان، د ت، دار صادر، بيروت.

محمد فوزي حمزة، دواوين الشعراء العشرة، 2016م، مكتبة الآداب، القاهرة.

مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، د ت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، 2004، دار صادر، بيروت.

الميداني أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، 2010م، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو النجم العجلي، الديوان، 1427هـ، مجمع اللغة العربية، دمشق.

أبو نواس الحسن بن هانئ، الديوان، د ت، دار صادر، بيروت.

الواقدي محمد بن عمر، مغازي الواقدي، 1989م، دار الأعلمي، بيروت.

الوأواء الدمشقي، الديوان، 1414هـ، دار صادر، بيروت.